العنوان:	قضية المنهج في رسالة طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي
المصدر:	دراسات أندلسية
الناشر:	جمعة شيحة
المؤلف الرئيسي:	الصيد، مصطفى
المجلد/العدد:	ع 44
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2010
الشهر:	محرم / ديسمبر
الصفحات:	101 - 112
رقم MD:	370078
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	المصادر، الأدب العربي، المنهج في رسالة طوق الحمامة ، ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، ت. 456 هـ. ، الأسباب، الأهداف، المنهج العملي، أصول الحب، آفات الحب، الأعراض، الأخلاق، الفلسفة المنطقية، النقد الأدبي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/370078

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

الصيد، مصطفى. (2010). قضية المنهج في رسالة طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي.دراسات أندلسية، ع 44، 101 - 112. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/370078

إسلوب MLA

الصيد، مصطفى. "قضية المنهج في رسالة طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي."دراسات أندلسيةع 44 (2010): 101 - 112. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/370078

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

قضيّة المنهج في رسالة طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي

بقلم الأستاذ : مصطفى الصّيد
كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعيّة -تونس

تقديم

يبدو أنّ قضيّة المنهج في طوق الحمامة لم تحظ من قبل الدارسين بنصيب كبير من الاهتمام الذي تستحقّ، وذلك رغم أهمّيتها، ورغم وعي ابن حزم نفسه بهذه القضيّة، وتنبيهه إليها في غير موضع من الرسالة ومقدّمتها خاصة، لذلك رأيت أن أساهم في هذه المقالة برأي في هذه القضيّة. وأعني بالمنهج في هذه المقالة طريقة التأليف والتبويب وتوزيع مادة الرسالة، ومدى استجابتها للقواعد المنهجيّة العلميّة التي أصبحت من شروط التأليف في عصرنا الحديث.

إن المقدّمة التي استهلّ بها ابن حزم رسَالَتَهُ في الحبّ تدلّ دلالة واضحة على وعيه بقضيّة المنهج، وتجاوزه لطرائق البحث التي جرى عليها التأليف في عصره. ففي المقدمة رسم ابن حزم تخطيطًا كاملاً للمنهج الذي اتبعه في تأليف الرسالة؛ فَعَرْضُ موضوع البحث، وَذِكْرُ الأسباب التي دعت إلى التأليف فيه، والغايةُ المرجوّةُ منه، ثم تحديدُ المصادر، وضبطُ الخُطة ضبطًا دقيقًا... إنّ عرض كل ذلك في المقدّمة إنّما هو شرط أساسي من شروط البحث العلميّ «الأكاديمي»، التي تؤكّدها مناهج البحث الحديثة، وهذا ما لمسناه في مقدّمة طوق الحمامة، وهو ما سنحاول إيضاحَهُ في هذه المقالة.

موضوع الرسالة وأسباب التأليف :

حدّد ابن حزم موضوع بحثه، ورسم أبعادَهُ وحُدُودَهُ، فقال : «وكلّفتني أعزّك الله أن أُصنّف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه، وأسبابه، وأعراضه، وما يقع فيه ولهُ على سبيل الحقيقة لا متزيّدًا ولا متفنّنًا»(1).

أما عن الأسباب التي دعت ابن حزم إلى وضع رسالته في الحبّ فقد لخّصها في سببين اثنين :

1) سبب فنّيّ : ذكر ابن حزم أنّه ألّف رسالة الطوق بطلب من أحد أقران الصّبا الذين يعزّ عليه أن لا يجيب لهُم طلبًا، فقال : «ولولا الإيجاب لك لما تكلّفْتُهُ»(2). فهذا سبب فنّي خلص منه ابن حزم إلى موضوعه، جريًا على طريقة المترسلين في الكتابة الفنيّة.

2) سبب ذاتي : إنّ وراء السبب الفنّي الذي ذكرنا سببًا ذاتيًا هامًّا، أشار إليه ابن حزم إشارة خاطفة، وذلك حينما خاطب صديقه قائلا :

«ثم كشفت إليّ بإقبالك غرضك وأطلعتني على مذهبك، سجيّة لم تزل عليها من مشاركتك لي في حُلْوك ومُرّك، وسرّك وجهرك»(3). فما عسى أن يكون هذا الحُلْوُ والمُرُّ الذي كان صديقُه يشاركُهُ فيه ! ؟ تلك هي الإشارة التي قصدنا إليها، ولعلّ صاحبها لم يكن يرمي إليها.

ونحن نجد هذه الإشارة أشدّ وُضُوحًا في نهاية الرسالة، حين يتحدّث ابن حزم عمّا كان يعانيه من آلام الغربة بعيدًا عن قرطبة، ملعب صباه ومسرح شبابه، وعمّا كان يقاسيه في شاطبة من وحشة يشوبُها الخوف والاِضطراب والتوجّسُ

(1) ابن حزم الأدلسي : طوق الحمامة، تحقيق صلاح الدين القاسمي، الدّار التونسية للنشر، ط 3، تونس، 1988. ص 43.
(2) المصدر نفسه : ص . ن .
(3) المصدر نفسه : ص 42.

والترقّب... فكانت هذه الرسالة وما خطّ فيها من ذكريات الماضي الجميل هي الرفيق في الغربة، والأنيس في الوحشة، والملجأ المطمئنّ من الخوف والقلق. ولعل تلك الزيارة التي أشار إليها ابن حزم في صدر رسالته هي التي قدحت زناد الذكريات في قلبه. وهل يخلو لقاء صديقين حميمين نازحين غريبين، بعد طول الفراق، من صور الماضي وأحاديث الصّبا وأماني الشباب! ؟ كل ذلك قد يؤكّده قول ابن حزم في المقدّمة مخاطبًا هذا الصّديق : «ثم لم ألبث أن اطّلع عليّ شخصُك، وقصدتني بنفسك على بُعد الشقة، وتنائي الديار، وشحط المزار، وطول المسافة، وغول الطريق. وفي دون هذا ما سَلَّى المشتاقَ ونسّى الذاكر، إلاّ من تمسّك بِحبْل الوفاء مثلك ورعى سالف الأذمّة، ووكيد المودّات، وَحَقَّ النشأة، ومحبّة الصّبى، وكانت مودّته لله تعالى»[1].

الغاية من تأليف الرسالة :

للرسالة غايتان اثنتان من تأليفها : فأما الغاية الأولى فهي ذاتية، لا تتجاوز الترفيه عن النفس لتجديد نشاطها. وقد استشهد ابن حزم في ذلك بقول أبي الدرداء، الصحابي المشهور : «أجمّوا النفوس بشيء من الباطل ليكون عونًا لها على الحق» [2]. واستشهد أيضا بالأثر القائل : «أريحُوا النفوس فإنّها تصدأ كما يصدأ الحديد»[3].

والحقّ أنّ هذه الغاية تعكس طبيعة الواقع الذي كان يعيشه ابن حزم في شاطبة، وقد يئس من السياسة طريقا إلى العزّ، ومرتقى إلى المجد، واستبدل بها العلم والمعرفة، فتفرّغ للكتابة والتأليف. في هذا الجوّ العلمي الجادّ كانت رسالة

(1) طوق الحمامة : ص .ن .
(2) المصدر نفسه : ص 43.
(3) المصدر نفسه : ص .ن.

طوق الحمامة ضربًا من التسلية المفيدة، ونوعًا من الترفيه الهادف النافع، ومن هنا جاءت الرسالة مَزِيجاً من العلم والأدب.

وأمّا الغاية الثانية فهي غاية علميّة ، وقد شرحنا ظروفها، وهيّأنا أسبابها. وهي غاية أعمقُ، لأنها تهدف إلى دراسة الحب دراسة علمية، وتسعى إلى تحليله ظاهرةً نفسيّةً واجتماعيّةً شغلت أهل الأندلس في ذلك الوقت. فبدأ ابن حزم ببيان حُكم الحبّ من الناحية الدينيّة الشرعيّة، ثمّ خصّص بقيّة الرسالة لدراسة الحبّ من جانبيْه النفسي والاجتماعي.

ونحن لن نفهم هذا المنحى العلميَّ الجادَّ حقّ الفهم ما لم ننتبه إلى نوع المصادر التي اختارها الكاتب لبحثه، وإلى نظام المنهج الذي سطّره لدراسة الحب. إذ لو أراد ابن حزم مجرّد الترفيه والتسلية الأدبيّة لاكتفى بإيراد الأخبار المحفوظة عن العرب، ولجاد بكلّ ما يدخل في هذا الباب من فنون الخيال، وضُروب الأقاصيص، ولكنه يُعرض عن هذا كلّه فيقول : « ودعني من أخبار الأعراب، فسبيلُهُمْ غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم» [1] وإذن فما هي المصادر التي اختارها ابن حزم مراجِعَ لبحثه؟ وما هو نهجُه في دراسة هذا البحث؟

مصادر ابن حزم في طوق الحمامة:

لابن حزم في موضوع الحبّ مصدران يصدر عنهما، ويرجع إليهما. فأما المصدر الأول فتجربته الذاتية في الحبّ. وهي - فيما يبدو - تجربة ناضجة، كما يظهر من حديث ابن حزم عن نفسه. وأمّا المصدر الثاني فهو خلاصة تجارب أهل عصره ممّن يثق بهم وبرواياتهم. ويقول ابن حزم في هذا المعنى : «والذي كلّفتني لا بُدّ فيه من ذكر ما شاهَدَتْهُ حضْرتي، وأدركتهُ عنايتي، وحدّثني به الثّقاتُ من أهل عصره».[2].

(1) طوق الحمامة : ص 44.

(2) المصدر نفسه : ص 43.

ونخلص من هذا إلى أنّ المصدر الأساسي في دراسة ابن حزم للحبّ هو التجربة، سواء أكانت ذاتيّة أم جماعيّة. والتجربة كما هو معلوم من أهمّ الأسس التي يقوم عليها المنهج العلميّ في البحث.

وتظهر خطوط المنهج العلميّ لابن حزم أيضًا في تقيّده بشروط الدراسة العلمية، وذلك حين يشترط أن تكون دراسته للحبّ « على سبيل الحقيقة لا متزيّدًا ولا مُتفنّنًا»[1]. فالخيال والتفنّنُ في تزويق الكلام والتزيّد فيه إنما هي من خصائص الفنون لا العلوم، لأن العلوم تكتفي بالوقوف على الحقائق، فتصفها كما هي ولا تتجاوزها. وهي وإن كانت في حاجة إلى الأسلوب الواضح المبلّغ فإنها في غنى عن التنميق والتزويق، بل هي أحوج إلى تدقيق العبارة، وضبط المصطلح، حتى لا يُفهم من الكلام غَيرُ ما يُقصدُ إليه.

وتجدرُ الإشارة في هذا السياق إلى أنّ ابن حزم قد التزم بهذا الشرط في الأقسام النظرية من أبواب الرسالة، ولكنّه تجاوزه في الأقسام الإخباريّة التي كان يوردُها لتدعيم ما جاء في الأقسام النظريّة، لأنّها من قبيل الروايات التي لا تحتاج إلى التشدّد في ضبط اللفظ، فهي إلى الأدب أقرب منها إلى العلم. وإذن فقد اعتبر ابن حزم هذا المبحث النفسيّ الاجتماعيّ في الحُب مبحثًا علميًا، فاتخذ من المنهج العلميّ سبيلاً إلى دراسته، ومن النثر العلمي وسيلة لتقرير مسائله النظريّة.

تلك هي مصادر ابن حزم في دراسة الحُبّ، وقد رأينا أنّها تَجْتَمِعُ كُلُّهَا في التجربة منهجًا للبحث. ولكنْ تبقى مسألة أخرى هي في رأيي أهمُّ المسائل المنهجيّة في طوق الحمامة، وهي مسألة التخطيط، أو الخُطّة التي رسمها ابن حزم لتأليف رسالته في الألفة والألاّف.

---

(1) طوق الحمامة : ص .ن.

منهج ابن حزم في تأليف طوق الحمامة :

أشار ابن حزم في مقدّمة كتابه إلى منهجين اثنين لدراسة الحُبّ، منهج نظريّ، ومنهج عملي.

1) المنهج النظريّ :

نعني به ذلك المنهج الذي رسمهُ ابن حزم في صدر الرسالة، شارحًا خُطّته في تقسيم الموضوعات تقسيمًا منطقيًّا منظّمًا، يقومُ على التدرّج الواضح المرسوم في دراستها.

2) المنهج العمليّ :

ونعني به المنهج الذي طبّقه ابن حزم على موضوع الحُبّ في صُلب الرسالة، وهو غَيرُ المنهج النّظريّ الذي شرحه في المقدّمة، بل هو تعديل له.

ولأهميّة هذا المنهج النظري في بيان معالم « التّأليف المنهجي» عند ابن حزم، رأيتُ أن يكون مركزَ اهتمامي في هذه الدراسة، مقارنًا إيّاهُ من حين إلى آخر، بالمنهج العملي الذي أشرتُ إليه.

لقد كان المنهج النظري الذي رسمه ابن حزم متقدّمًا على عصره في تنظيمه وتخطيطه. لكنّ ابن حزم خالف هذا المنهج، وكاد يعدل عنه، حرصًا منه على طريقة عصره، وإشفاقًا من مخالفتها. فجعل الضدّ من الموضوعات إلى جنب ضدّه، وجمع بين أغراض الحب وآفاته، فكان أن فقد المنهج النظريّ قوّة تماسكه القائمة على التقسيم الموضوعي المنطقي، وأصبح مَنْهجًا يقوم على أساس شكليّ، يتمثّل في جعل الضدّ إلى جنب ضدّه. وهذا التقسيم وإن كان يستند إلى منطق شكلي، فإنّه يفتقر إلى أساس الترابط الموضوعي المنطقي، الذي يجعل من هذه الموضوعات بناءً متماسكًا. ويقول ابن حزم مبرّرًا التعديل الذي أشرنا إليه : «ولكنّا خالفنا في نسق بعض هذه الأبواب الرتبة المقسّمة،

فجعلناها على مباديها إلى منتهاها واستحقاقها في التقدّم والدرجات والوجود، وجعلنا الضدّ إلى جنب ضدّه، فاختلف المساق في أبواب يسيرة»[1].

والحق أنّ المساق قد فقد تماسكه الموضوعي، وأصبح قائمًا على منطق الترابط الشكلي، لا على منطق الترابط الموضوعي. ومهما يكن من أمر فقد حافظ ابن حزم على جانب من منهجه النظري، وذلك في دراسته لأصول الحب، فهو لم يُدخل عليها إلاّ موضوعًا واحدًا وهو «من أحبّ صفة لم يحبّ بعدها غيرها». وفي دراسته لأخلاق الحب حافظ على البابين بعينهما. أما أعراض الحبّ وآفاته فقد مزج بينهما على أساس مقابلة الضدّ بضدّه.

إنّ المنهج النظري الذي رسمهُ ابن حزم في مقدمة الرسالة يقوم على التّسلسل المنطقي والتقسيم المنظّم للموضوعات. فقد قسّم ابن حزم موضوع الحبّ إلى أربع قضايا كبرى وهي : أصول الحبّ، وأغراض الحب، وآفات الحُبّ، وأخلاق الحبّ. وسنبيّن في ما يأتي العلاقة المنطقيّة التي تربط بين موضوعات كلّ قضيّة.

القضيّة الأولى : أصول الحُبّ

الأصول مصطلح منطقي يُطلقُ على الأسس التي تقوم عليها المباحث الفقهيّة، وبإطلاق ابن حزم هذا المصطلح على هذا المبحث «النفسي الاجتماعي» - أعني الحبّ - نفهم أنه أراد أن يدرس الحب دراسة علميّة أصولية، إن صحّت العبارة، أي دراسة تقوم على منهج مضبوط ومنطق معيّن، وأصول معلومة، لا مجرّد دراسة أدبيّة فنّية.

ويرى ابن حزم أنّ للحبّ أصولاً ثلاثة، تتمثل في مباحث ثلاثة وهي :

1) ماهية الحب : وهو مبحث فلسفي، ذو طابع تجريديّ، كما يدلّ عليه

(1) طوق الحمامة : ص 45.

مصطلح «ماهية»، وهو يتناول الحبّ من حيث حقيقتُه أو جوهرُهُ.

2) علامات الحب : وهذا المبحث يقابل المبحث السابق، لأنه يقوم على أساس الملاحظة والتجربة، لا على أساس النظر المجرّد. وهو يدرسُ الحُبّ من حيث مظهره الخارجي الذي يدلّ عليه، لا من حيث جوهرُه أو ماهيتُه.

3) أسباب الحب : وقد قسّم ابن حزم هذا المبحث إلى قسمين اثنين : قسم أول، عُني فيه بأسباب الحبّ أي بِعِلَلِهِ، وقد رتّبها ترتيبًا منطقيًّا منظّمًا من العلة الضعيفة إلى العلّة الأقوى : فمن الحب في النوم إلى الحُبّ بالوصف، ومن الحُبّ من نظرة إلى الحُبّ مع المطاولة. وقسم ثان عُني فيه بأسباب الحبّ، أي بروابطه التي تُساهم في عقد العلاقة بين طرفيْ الحبّ وتوطيدها. وهي متدرجة أيضا من الأضعف إلى الأقوى : فمن التّعريض بالقول، إلى الإشارة بالعين، ومن المراسلة إلى السفير.

القضيّة الثانية : أعراض الحب

جعل ابن حزم الحبّ على صنفين : صنف للأعراض المحمودة، وهي الصديق المساعد، والوصل، وطيّ السرّ، والطاعة، ومن أحبّ صفة لم يحبّ غيرها، والقنوع، والوفاء. وصنف للأعراض المذمومة، وهي الإذاعة، والمخالفة، والغدر، والضّنى، والموت.

القضيّة الثالثة : آفات الحبّ

جعلها ابن حزم قسمين اثنين : قسمًا في الآفات الخارجية أو الطارئة على الحبّ، فتُفسده. وقد رتّبها ترتيبًا تصاعُديًّا بحسب خطورتها : فأوّلها العاذل، ثم الرقيب، ثم الواشي، وقسما ثانيا في الآفات المتولّدة عن الحب، فهي غير طارئة وقد جعل ترتيبها على هيئة القسم الأوّل، فكان أوّلها الهجر، وثانيها البين، وثالثها السُلوّ.

القضيّة الرابعة : أخلاق الحب

يعني بها ابن حزم الأخلاق التي يجب أن يتحلّى بها المحبّ. ولئن لم يصرّح ابن حزم بمصطلح «أخلاق» في عنوان هذه القضيّة، فإنّنا نفهم ذلك من سياق البابين وعُنوانيْهما، وهما باب قُبح المعصية، وباب فضل التّعفف.

تلك إذن هي أهمّ المعالم المنهجيّة في رسالة طوق الحمامة لابن حزم، وقد رأيت بعد هذا التحليل أن أقدّم جدْولاً مفصّلاً لكُلٍّ من المنْهجيْن النظري والتطبيقي، حتى يبدُوَ وجهُ المقارنة أكثر وضوحًا.

(المنهج النظري)	(المنهج العملي)
القسم الأوّل : أصول الحُبّ	القسم الأول : أصول الحبّ
I ماهية الحُبّ. II علامات الحُبّ. III أسباب الحبّ : 1) أسباب غَيْرُ مباشرة : - من أحبّ في النوم. - من أحبّ بالوصف. 2) أسباب مباشرة : - من أحبّ من نظرة واحدة.	المنـــهـج نفـــسُـــــــــهُ

- من أحبّ مع المطاولة.

من أحبّ صِفَةً لم يستحسن بعدها غيرها ممّا يُخالفُها

3) روابط الحبّ :

- التّعريض بالقول .
- الإشارة بالعين .
- المراسلة.
- السفير.

القسم الثاني أعراض الحُب

1) أعراض محمودة :

- الصديق المساعد
- الوَصْلُ
- طي الستر
- الطاعة
- من أحبّ صفة لم يحبّ غيرها...
- القنوع.
- الوفاء.

2) أعراض مذمومة:

- الإذاعة.
- المخالفة

القسم الثاني : أعراض الحُبّ وآفاته

- طي الستر
- الإذاعة.
- الطاعة.
- المخافة.
- العاذل.
- الصديق المساعد.
- الرقيب.
- الواشي.
- الوصل.
- الهجر.

- الغدر.
- الضّنى
- الموت.

القسم الثالث : آفات الحبّ

1) آفات أسبابُها موضوعية:
- العاذل.
- الرقيب.
- الواشي.

2) آفات أسبابها ذاتية :
- الهجر.
- البين.
- السُّلوُّ.

القسم الرابع : «أخلاق» الحب
- قُبح المعصية
- فضل التّعفّف.

- الوفاء.
- الغدر.
- البين
- القنوع
- الضّنى
- السُّلُوُّ.
- الموت (لا ضدّ له).

القسم الثالث: «أخلاق» الحب
- قُبحُ المعصية.
- فضْلُ التعفّف.

خاتمة :

خلاصة القول في قضية المنهج في طوق الحمامة : إن ابن حزم قد تأثّر - فيما يبدو - بتكوينه الفلسفي المنطقي، وبتكوينه الفقهي أيضا في تخطيطه المحكم للرسالة، وفي توزيعه المنظم لموضوعاتها خصوصًا من الناحية النظرية. ولولا ما كان في الرسالة من جوانب أدبيّة فنيّة لا يُمكنُ تجاهُلها خاصّة في قسم الأخبار لما بعدت أن تكون الرسالة رسالة فِقْهٍ في منهجها، ولما بعُد موضوع الحب أن يكون قضيّة «علمية» مقسّمة إلى أصول، ثمّ إلى فُروع، ثم إلى مسائل يقوم عليها الجدال، وتتضارب حولها الأقوال، والحجج والبراهين، تمامًا كما هو شأن الفقه في قضاياه ومسائله .

هذا وإن الرسالة لا تخلو من ملاحظات منهجيّة دقيقة، تؤكّد لنا ما يتميّز به عقل ابن حزم من تفكير منهجي. وقد كان ابن حزم يشير إلى هذه الملاحظات في مواضعها حين يقتضيها السّياق، حرصًا منه على إيفاء قضيّة الحبّ حظّها من التقويم، وإعطاء الرسالة نصيبها من التنظيم. من ذلك قوله في باب «من أحبّ من نظرة واحدة» : «ولا بُدّ لكلّ حُبّ من سبب يكونُ له أصْلاً، وأنا مبتدئ بأبعد ما يكون من أسبابه ليجري الكلام على نسق»[1]. ومن ذلك أنه استطرد في باب الواشي استطرادًا منهجيًا إن صحّ التّعبير، فقال : «ولا بُدّ أن أورد شيئا يُشبهُ ما نحن فيه، وإن كان خارجًا عنه، فالكلام يدعو بعضُه بعضًا كما شرطنا في أوّل الرسالة»[2].

(1) طوق الحمامة : ص 45.
(2) المصدر نفسه : ص 129.